مجلة المرابط

العدد : ٢١٣ الموافق في جمادى الثاني ١٤٢٠ هجري ١٠ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : فقه الاغتراب والأقلية – ٣–	بقلم : أ. متولي موسى

ثانياً: فقه الاغتراب:

قبل الحديث عن الأسئلة التي يطرحها فقه الاغتراب ، لا بد من تحديد معنى " الاغتراب " عند علماء الاجتماع وعلماء المسلمين ..

١. الاغتراب عند علماء الاجتماع :

شاع استخدام لفظة « الاغتراب » في اللغات الأوروبية المتعلقة بالدراسات الاجتماعية والنفسية ، ومن معانيها : الانفصال عن الآخرين وتعرف بغربة الانفصال ، والقلق والتمزق النفسي وتعرف بغربة النفس ، والخضوع للآخر وتعرف بغربة الخضوع ، وقد نال موضوع الاغتراب الداخلي للإنسان حظاً وافراً من الدراسة ، فظهر منه أن العلاقة بين الإنسان وغيره ليست حميمة أي فاترة .

وقد أشار قاموس « العلوم الاجتماعية » إلى أن الاغتراب حسب الاستخدام الشائع في العلوم الاجتماعية يشير إلى حالة الغربة أو الانفصال بين الأجزاء أو الشخصية والجوانب الدالة على الخبرة الخارجية ، وبذلك يشير المصطلح للحالة الموضوعية للاغتراب والانفصال ، وحالة شعور الشخصية المغتربة ، وما يعنيه ذلك من انفصال بين الذات والعالم الموضوعي ، وبين الذات وجوانبها التي صارت منفصلة .

وقد سعى علماء الاجتماع لدراسة ظاهرة الاغتراب لمعرفة أبعاد العلاقة بين ظاهرة الاغتراب والظواهر الاجتماعية الأخرى مثل : التغير والتوازن في النسق الاجتماعي ، فاستخدم « توكفيل » الاغتراب بوصفه صياغة للحط من قدر الإنسان وإهدار فرديته نتيجة لمجموعة من العوامل المصاحبة لظروف التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية الحديثة ، والتي ترتب عليها جعل الإنسان مجرد ترس في الآلة ، وفصلته عن قيمه الراسخة وروابط مجتمعه ، وسلبته إرادته .

ومن ذلك يتبين أن الاغتراب في المجتمع الصناعي يحطم التوحد الذاتي للإنسان بتشتيته بين مجموعة أدوار منفصلة ، فضلاً عن الضغوط التي تمارسها الأنظمة الاجتماعية على شخصه .

ولقد حلل الدكتور السيد علي شتا ظاهرة الاغتراب فقال : " تحوي ظاهرة الاغتراب باعتبارها ظاهرة اجتماعية جوانب ثلاثة تتمثل في : الجوانب الثقافية ، والجوانب الاجتماعية ، والجوانب الشخصية . أما عن الجوانب الثقافية لظاهرة الاغتراب فتشتمل على نسق القيم الموجهة ، وبُعد المعرفة

بالأهداف والوسائل ، وبُعد اللا معنى ، وبُعد المعيارية . أما الجانب الاجتماعي فنتناوله من خلال تحليلنا لبُعد سلب الحرية في النسق الاجتماعي على مستوى حرية المبادأة ، وحرية التنفيذ بالإضافة إلى التكيفات المغتربة للمواقف الاجتماعية في النسق . وبالنسبة للجانب الشخصي لظاهرة الاغتراب فإنه يتعين بتحليلنا لصراع الألهداف ، ومظاهر الاغتراب النفسي ، والبعد العام للاغتراب النفسي "[1]

٢. الاغتراب عند علماء المسلمين :

أ- **في اللغة العربية** : تقول : غربت الشمس غروباً أي اختفت في مغربها . وتقول : غرب فلان أي غاب . وغرب القوم أي ذهبوا ، وغرب عنه أي تنحى. وتقول : غرب فلان غربة أي بعد عن وطنه ، وأغرب أي أتى الغرب وصار غريباً وارتحل .

ولقد ذخرت اللغة العربية بالاستخدامات المختلفة لمصطلح الاغتراب ، فقد اهتم علماء التفسير بالغريب الذي ورد في القرآن الكريم ، وعلماء المصطلح بالغريب الذي ورد في حديث رسول الله ﷺ وصنفوا في ذلك المصنفات . يقول الإمام الخطابي : " الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد الفهم ، كما أن الغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل " .

وقد تكون دلالة هذه الكلمة على مدلولها بالمطابقة كتسمية المقيم بين قوم سوى قومه غريباً ، وقد تكون دلالتها بالالتزام كتسمية النازح عن وطنه غريباً ، لأن نزوحه يقتضي أن يقيم بين ظهراني قوم آخرين فيكون غريباً عنهم .

ب- **في السنة النبوية المطهرة** : جاءت اللفظة بمعنى المقيم في غير وطنه ، وبين قوم غير قومه ؛ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " . وكان ابن عمر يقول : " إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك " [رواه البخاري وغيره] .

وعن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما قالا : كنا عند النبي ﷺ فقام رجل فقال : أنشدك الله إلا قضيت بيننا بكتاب الله ، فقام خصمه ، وكان أفقه منه ، فقال : اقض بيننا بكتاب الله وأذن لي ! قال : (قل) . قال : إن ابني كان عسيفاً على هذا فزنى بامرأته ، فافتديتُ منه بمائة شاةٍ وخادمٍ ، ثم سألت رجالاً من أهل العلم ، فأخبروني : أن على ابني جلدَ مائةٍ وتغريب عام ، وعلى امرأته الرجم ، فقال النبي ﷺ : " والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله جل ذكره ، المائة شاةٍ والخادم ردٌّ ، وعلى ابنك جلد مائةٍ

[1] د. السيد علي شتا ، نظرية الاغتراب من منظور اجتماعي ص ٣٣٠-٣٣١

وتغريب عام ، وأغد يا أنيس على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها ". فغدا عليها فاعترفت فرجمها [رواه البخاري]

وجاءت اللفظة بمعنى الاغتراب المعنوي ، وهو أن يكون المرء على حال من الاستقامة ولزوم الجادّة ، ومجانبة الفتن والأهواء ، وملازمة السمت الذي كان عليه الصدر الأول ، مع قلة النصير والمعين والموافق ، وكثرة المنابذ والمخذّل والمخالف ، فيسمى صاحب هذه الحال غريباً - ذهاباً إلى المعنى العام وهو عدم موافقته لمن حوله ، إذ له شأن ولهم شأن آخر ، وهو في وادٍ وهم في وادٍ [٢]-؛ عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال : " إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء " [رواه مسلم وغيره]

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : نام الرسول ﷺ على حصير ، فقام وقد أثر في جنبه ، فقلنا : يا رسول الله ! لو اتخذنا لك وطاءً ، فقال : " ما لي وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها " [صحيح سنن الترمذي للشيخ ناصر الدين الألباني وقال حديث صحيح].

قال الحافظ ابن رجب : " وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ولا وطناً ، فينبغي للمؤمن أن يكون حالُه فيها على أحد حالين : إما أن يكون كأنه غريب مقيمٌ في بلد غربة ، همّه التزود للرجوع إلى وطنه ، أو يكون كأنه مسافرٌ غير مقيم البتة ، بل هو ليله ونهاره ، يسير إلى بلد الإقامة ، فلهذا وصّى النبي ﷺ ابن عمر أن يكون في الدنيا على أحد هذين الحالين "[٣]

وكان عطاء السّلمي يقول في دعائه : " اللهم ارحم في الدنيا غربتي ، وارحم في القبر وحشتي ، وارحم موقفي غداً بين يديك " [الحلية : ٢١٧/٦] .

وأنشد الإمام ابن القيم أبياتاً من قصيدة مطولة :[٤]

فحيَّ على جناتِ عدنٍ فإنها منازلُك الأولى وفيها المخيمُ
ولكننا سبيُ العدوِّ فهل ترى نعودُ إلى أوطاننا ونُسلَّمُ
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى وشطَّتْ به أوطانه فهو مغرَمُ
وأيُّ اغتراب فوق غربتنا التي لها أضحت الأعداءُ فينا تَحَكَّمُ

[٢] سليمان بن فهد العودة ، الغرباء الأولون ، ص : ٣٦ .
[٣] أبو الفرج شهاب الدين البغدادي الشهير بابن رجب ، جامع العلوم والحكم ، شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، ص: ٣٧٨ .
[٤] ابن القيم الجوزية ، حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ، ص: ١٤ .

ويعتبر الأستاذ سلمان بن فهد العودة : " الفتنة صورة من صور الغربة ، كان يعانيها المسلمون الأولون في مكة وغيرها ، وظلت تواجه أجيالاً أو فئات من المسلمين حتى اليوم "[٥]

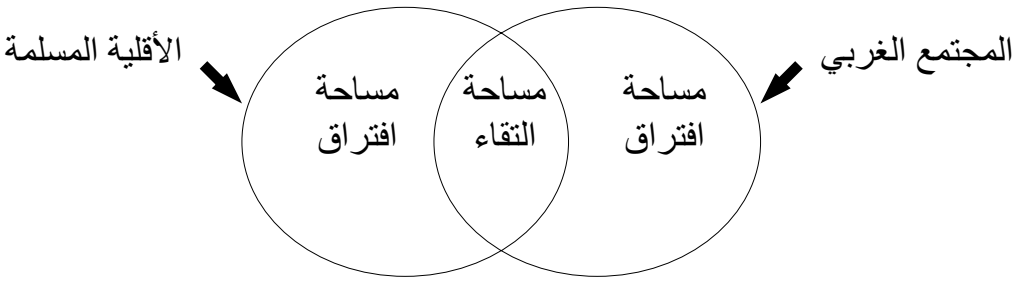
ويقسم الغربة إلى ثلاثة أنواع :[٦]

* **غربة شرائع** ، بحيث تصبح شرائع الإسلام غريبة ،كالجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولذلك وصف الرسول ﷺ الإسلام في بدايته ، وفي نهايته بأنه غريب .

* **غربة مكان** ، وهي أن يكون الدين غريباً في بلد من البلدان ، ويكون أهله غرباء في ذلك البلد ، بينما هم في بلد آخر أعزة ظاهرون ، فالغربة تكون في مكان دون مكان .

* **غربة زمان** ، وهي الغربة المستحكمة المطبقة على الأرض كلها ، بحيث يغدو الدين غريباً في زمن من الأزمنة ، في بقاع الأرض كلها كما حدث في بعثة النبي ﷺ ، وهذا يكون في أمته بعد نزول عيسى عليه السلام وقبل الساعة .

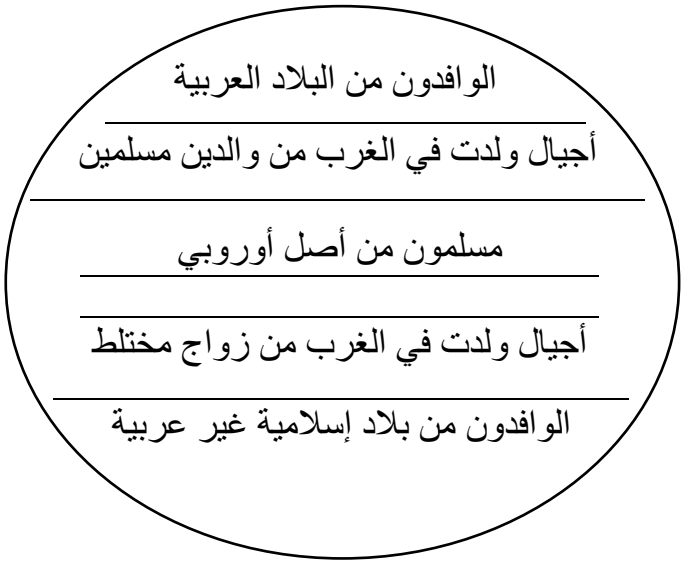
خلاصة الأمر : مما سبق يتبين أن مفهوم الاغتراب ينطبق على الجاليات المسلمة في الغرب بكل المعاني التي ذكرت ما عدا المعنى الثالث الذي لا يوجد إلا بعد نزول المسيح عيسى عليه السلام - والذي لم يتحقق حتى الآن . ويمكن توضيح علاقات هذه الجاليات بالمجتمعات الغربية على النحو التالي :



[٥] سلمان بن فهد العودة ، من وسائل دفع الغربة ، ص: ٥٥ .

[٦] سليمان بن فهد العودة ، الغرباء الأولون ، ص : ٥٢-٥٣ .

*** وشرائح المسلمين على الشكل الآتي :**



*** أهم مجالات مساحات الافتراق :**

١. ما يتعلق بالاستثمار والاقتصاد والعقود التجارية .

٢. الأحوال الاجتماعية وما يتعلق بالتفسخ الأسري

٣. كثير من قيم المجتمع والأخلاق الغربية السائدة .

٤. الإيمان والقيم الإيمانية

٥. الجوانب الإدارية والدستورية (في جوانب عديدة)

٦. الإعلام والتثقيف والتربية (في جوانب عديدة)

٣- أسئلة ومتطلبات لفقه الاغتراب

أ- هذا الواقع يطرح أسئلة ويستلزم متطلبات :

* كيف يمكن للمسلمين في بلاد الغرب أن يصدروا عن إسلامهم والاحتفاظ بهويتهم في ظل هذه الغربة بكل معانيها ؟ كيف تتم مواجهة التحدي والتحقق بعدم الذوبان في المجتمع الغربي ؟ وفي ذات الوقت كيف يتم التعامل مع هذا المجتمع في ظل نظمه وقوانينه وأنساقه الاجتماعية ؟

* ليس مستغرباً في ظروف الجاليات المسلمة في الغرب - بتراكمات الماضي - أن يكون هناك توجهات مختلفة في تحديد الخيار الذي يصدر عنه : تجديد الدين على مستوى المعرفة بتنقيته من البدع والانحرافات ، وعلى مستوى الالتزام به وتحويله إلى مشروعات حياتية من ناحية ؛ ووضوح منهج التعامل مع أنساق المجتمع الغربي على مستوى الأفراد والأسر والمؤسسات من خلال الاجتهاد البصير

الذي يحدد ثوابت الإسلام التي لا يمكن التنازل عنها ، والمجالات التي يسمح الشرع فيها بإعادة النظر في اجتهادات الزمان والمكان من ناحية أخرى .

ب- متطلبات فقه الاغتراب : لا بد للغرباء من المسلمين من دفع ضريبة غربتهم ، والاقتداء برسول الله ﷺ - والصحب الكرام - رضي الله عنهم - وهذا يتطلب منهم:

- **تحقيق الترابط في قلوبهم وأعمالهم ، بما يجعلهم فئة متراصة ، إذ أن ذلك يحقق لهم أهدافاً كثيرة منها :**

- دفع الشعور بالغربة الفردية .

- الانتماء للإسلام من أسباب التثبيت والتحريض على الصبر عند الشدائد .

- شعور المسلم بانتمائه إلى كيان واقعي يمثل العقيدة التي يؤمن بها ، والمنهج الذي يسير عليه ، يجعله يصب جميع طاقاته وقدراته في دعم الكيان وتقويته وحمايته .

- **التعاون والتناصر وتنسيق الجهود** ، هو الذي يمكن الجالية من مواجهة التحديات ، إذ قد تملك مؤسسة المال والإمكانات العملية ، وتملك أخرى الرجال والإمكانات الفكرية ، وتملك ثالثة السبق في الإدارة والتخطيط والإمكانات التربوية ، وتملك رابعة السبق في مجالات البحث العلمي والتقنية ..إلخ . أو بعبارة أخرى قد يتهيأ لمؤسسة ما الظروف للقيام بفرض من فروض الكفاية ما لم يتهيأ لغيرها من المؤسسات ، فالتخصص من سمات هذا العصر ، وهو ضروري لتكامل الجهود وزيادة الطاقات وفاعلية الإمكانات ، وأكثر دقة في توزيع المهام والواجبات ، وكل ذلك يجعل المؤسسات في مجموعها أقدر على الاستفادة من الإمكانات والظروف التي تختلف من مكان لآخر ومن وقت لآخر

- **التحقق بالمؤاخاة بين المسلمين في الغربة** - كما فعل الرسول ﷺ - أول الاستقرار بالمدينة ، واستمر ذلك يتجدد بحسب من يدخل في الإسلام أو يحضر إلى المدينة ، فالتآخي في الله تعالى هو العاصم الأول من التفرق والتمزق ، ويمنع الاستجابة لنزغ شياطين الإنس والجن ، وهو سبب من أسباب إشاعة الرفق والمحبة بين شرائح المسلمين .

- **بناء وتكوين المؤسسات التي تحتاج إليها الجالية للحفاظ على هويتها** ، وبما يمكنها من التفقه في الدين ، وتطبيقه في واقع الحياة ، ولا يكتفى هنا ببناء المساجد - على أهميتها - وإنما لا بد من العمل على بناء رياض الأطفال والمدارس والنوادي ...الخ

- على القائمين على مؤسسات العمل الإسلامي في الغرب التنادي إلى **تحديد المنطلقات والأصول**

التي ينبغي الالتزام بها ، وترتيب الأولويات ، وتوضيح الواجبات ، وتحديد معالم المسيرة ، بحيث تتسلسل الخطوات والبرامج ، مع الاستعداد الدائم للمراجعة والتصحيح ، وسعة الصدر لقبول الاجتهاد الآخر في الأمور الخلافية ، حتى لا يتحول اختلاف التنوع إلى اختلاف تضاد ، فيكون سببا للخصومة والتناحر والفرقة .

- لا شك أن **الحركة بالإسلام في هذه الظروف** هي من أعظم أسباب نماء الإيمان وزيادته وتغلغله في القلب ، ذلك لأن المسلم الذي جعل همه التلبس بالدعوة فسوف تتكيف مشاعره مع دعوته ، وبالتالي تتشكل عواطفه وتصطبغ روحه ومشاعره بها ، فتصبح الدعوة جزءاً من حياته وشخصيته وتكوينه ، وهذه ضمانة قوية للصبر والثبات على الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر .
- **اكتشاف الصيغة المناسبة للخطاب الإسلامي في الغرب** ، والتي يتوجه من خلالها إلى شرائح المسلمين باختلاف مستوياتهم الثقافية والفكرية من جهة ، و إلى المجتمع الغربي من جهة أخرى لبيان حقيقة الإسلام وتصحيح الصورة الخاطئة عنه ، والتي تكونت من خلال وسائل الإعلام المغرضة . والله الموفق .